

19

2011

إصدار ثاني 2023

إكتابه العربي للعلوم النفسية

إصدارات محكمة في علوم النفس

سلسلة إصدارات مكتبية محكمة

الإصدار التاسع عشر

أسسها الدكتور محمد بن عبد الرحمن إبراهيم



عبد الرحمن إبراهيم
تأليف
يحيى الرضاوي
جمال التركي

عدد 19 - 2011

إصدارات مؤسسة العلوم النفسية العربية



كيف نفهم...
ومرارة الفقد والأسى؟

عبد الرحمن إبراهيم
تتويج
يعقوب الرضاوي
جمال التركي

الفهرس

6	الإهداء ..
7	بين يدي الكتبيج
12	مقدمة الكتابج
26	مدخل الكتابج
31	القسم الأول..... نظرتنا للحياة والمعاني الاجتماعية للمرض
31	الفصل الأول: نظرتنا للحياة والمعاني الاجتماعية للمرض
31	طبيعة الحضارة
35	الفصل الثاني: مفاهيم حول المرض
37	الفصل الثالث: المساندة الحضارية للطب المعاصر
45	الفصل الرابع: الحضارة وأدوار المريض والطبيب
47	الفصل الخامس: المراكز الطبية الحديثة وثقافة المشافي
50	القسم الثاني...مشكلات خاصة في الطفولة والمراهقة
50	الفصل الأول: ارتكاس الأطفال ل: الاستشفاء، الجراحة، العجز الجسدي
50	المرحلة التطورية
53	مقدرة التغلب على المشكلات
54	الشذات النوعية
58	الفصل الثاني: ارتكاس العائلة والكادر الطبي للشدة
58	العائلة

61	الطبيب والطاقم التمريضي
65	القسم الثالث...الفقد و الأسى و الحداد عند الأطفال
65	الفصل الأول: الفقد و الأسى و الحداد عند الأطفال
65	وفاة الجد
69	الفصل الثاني: مراحل الحداد عند الأطفال
73	الفصل الثالث: الصبر والاحتساب في المراحل التطورية
74	الفصل الرابع: الحداد المرضي عند الأطفال
78	القسم الرابع...الطفل والمراهق المحتضر
78	الفصل الأول: الطفل والمراهق المحتضر (المنظورات الأخلاقية)
78	الحياة والموت
79	معضلة إخبار الطفل
82	حق الطفل بالمشاركة
83	حق الطفل بالحياة
85	الفصل الثاني: الطفل والمراهق المحتضر (المنظورات السريرية)
85	وفاة الطفل
85	وعبي الطفل للوفاة
88	الفصل الثالث: فقدان جزء من الجسم
91	الفصل الرابع: فقدان شقيق
93	الفصل الخامس: فقدان أحد الوالدين
94	الفصل السادس: فقدان زميل
95	الفصل السابع: وفاة المراهق
103	القسم الخامس...الفقد والأسى والحداد عند البالغين
103	الفصل الأول: الأسى والحداد
104	الفصل الثاني: مراحل الحداد والأسى
104	مرحلة الاحتجاج أو الرفض

106	مرحلة التشوش
109	مرحلة إعادة التنظيم
110	الفصل الثالث: الحداد المرضي
114	الفصل الرابع: الطبيب والعملية الحدادية
116	القسم السادس..... البالغ المحتضر
116	الفصل الأول: البالغ المحتضر (منظورات تاريخية)
116	حقيقة الوفاة في فترة ما قبل التاريخ
119	الفصل الثاني: البالغ المحتضر (منظورات دينية)
121	الفصل الثالث: البالغ المحتضر وبدايات الطب المعاصر
123	الفصل الرابع: التطورات المعاصرة للعناية الطبية بالإنسان المحتضر
124	توجيهات للتعامل مع المرضى المحتضرين
126	الفصل الخامس: مراحل الاحتضار
127	مرحلة الإنذار
127	مرحلة الغضب
128	مرحلة المساومة
128	مرحلة الرفض
128	مرحلة القبول
129	الفصل السادس: تفرد الاحتضار
132	ملخص: الاحتضار،، الوفاة والفقدان
136	خاتمة

الإهداء

[قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَمَلِهِ شَأْنُهُ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا] [84]
وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا
قَلِيلًا [[85]] الإسراء

إلى ... الحياة التي عشنا..

إلى ... الراحلين في الوجود...

إلى ... الخالدين في الذاكرة..

عبد الرحمن

بين يدي التخيبة

هناك عدة أسباب تدعوني للتحدث عن الجوانب النفسية لسلوك الإنسان خلال حالات الفقد التي قد يتعرض لها خلال مسيرة حياته منذ الطفولة وحتى الشيخوخة وانتهاء بالوفاة..

فالمراجع العربية في هذا المجال نادرة على فرض وجودها، فمن خلال متابعتي خلال ما يقارب العقدين من الزمن لمعظم ما ينشر باللغة العربية عن العلوم النفسية لم أوفق بالعثور على مرجع يتحدث في هذا المجال، وغني عن القول ما لهذا المجال من أهمية بالغة للباحث والمختص في ميدان العلوم النفسية إضافة إلى كل من الطبيب وطالب الطب والتربية والمعلم وقبل كل هؤلاء الأهل والأسرة..

بشكل عام يتظاهر الفقد بعدة مظاهر، فهناك **الفقد الحقيقي Real** وهو فقد شخص معين ذو أهمية خاصة بالنسبة لنا. وهناك **الفقد المهدد Threatened**، وهو ظرف الإنسان الذي يتعامل مع خطورة وفاة شخص هام بالنسبة إليه. وعند الإنسان فقط من بين كل الكائنات يوجد ما يمكن أن ندعوه **الفقد الرمزي Symbolic**، فليس الفقد هنا لإنسان بل لاعتقاد أو فكرة أو طريقة حياة أو حتى لبلد. وهناك أيضا ما يمكن أن ندعوه **الفقد الخيالي Fantasied** إذ يتعامل الأشخاص كما لو يوجد فقد مع أنه لا يوجد سبب واضح لهذا الاعتقاد¹.

سبق أن تحدثت في كتابي "كيف نفهم الطفل والمراهق" عن تطور الكائن البشري من الولادة وحتى المراهقة² ورأينا كم هي كثيرة أنواع الفقد والحرمان

يتظاهر الفقد بعدة مظاهر، فهناك الفقد الحقيقي Real وهو فقد شخص معين ذو أهمية خاصة بالنسبة لنا. وهناك الفقد المهدد Threatened، وهو ظرف الإنسان الذي يتعامل مع خطورة وفاة شخص هام بالنسبة إليه

التي تفرضها الظروف التطورية المختلفة: فقد الطفل لوحده مع أمه، وفقد الطفل الدارج لصورة أمه كمهتمين بشؤونهم، ونلاحظ فيما بعد فقد متوسط السن والمتقدم في السن للشباب والصحة الجسدية. وفي الحقيقة، يمكن أن نعتبر كامل دورة الحياة من الولادة إلى الوفاة، كتغيرات في موضوع الحرمان والفردية والفقد..

إضافة لهذه الحرمانات الأساسية المتعلقة بالنمو والتطور، هناك حرمانات أقل توقعاً مثل الحرمان غير العكوس لوفاة شخص مهم، يمكن للشخص أن يختبر فقداً دائماً في ظروف الطلاق أو أي نوع من الافتراق يصبح بعد الشخص فيه طويلاً. وقد يشعر الإنسان بتغير في علاقات الحب، فزوجة كانت معتادة على حب زوجها لها وإظهار هذا الحب؛ سوف تشعر بنوع من الفقد عند انشغاله بعمله.

ونوع كبير من الفقد لأي شخص هو عند تعرضه لمرض جسدي. وبالطبع فإن عمليات البتر أو أي عمليات فيها ضياع لأقسام من الجسم هي مصدر كبير لشعورنا بالفقد. وقد يشعر الإنسان بالفقد عند اضطراب عمل أي من الأعضاء، أو الاضطراب ككل كما يحدث في سن اليأس عند الأنثى.

إن أي مرض عضوي يعطي بعض الفقد للآلية الصحية للفرد، فهذا يبدو صحيحاً تماماً في الأمراض المزمنة حيث يشكل العلاج أيضاً نوعاً من الفقد. مثال ذلك؛ شخص عنده داء قلبي رثوي سيطلب منه تحديد نشاطه، ولكن بتقدم الجراحة القلبية وإمكان إجراء العمل سيعود إلى الشخص استطاعته القيام بحيويته الكاملة تقريباً، وعندها سيشعر ببعض الفقد لحياته السابقة المحددة. وعلى الرغم من أنه عاد صحيحاً لكنه يستصعب عودة التألوم لطريقته القديمة في معاملة الناس، وهذا قد يشكل تعقيداً أكبر.

وهناك أيضاً أنواع أخرى من فقدان تسبب ارتكاس حرمان مثل فقد المركز الاجتماعي، فقد العضوية في تجمع أو جماعة معينة، فقد بيت معين، فقد وظيفة، فقد ممتلكات شخصية معينة. وقد شوهدت حالات حرمان في

عند الإنسان فقط من
بين كل الكائنات
يوجد ما يمكن أن
ندعوه الفقد الرمزي
Symbolic. فليس
الفقد هنا لإنسان بل
لاعتقاد أو فكرة أو
طريقة حياة أو حتى
لباد

هناك أيضاً ما يمكن
أن ندعوه الفقد
الخيالي Fantasiel
إذ يتعامل الأشخاص
كما لو يوجد فقد مع
أنه لا يوجد سببه
واضح لهذا الاعتقاد

الأشخاص الذين اضطروا لتطور مدني معين، عندها لم يكتفوا بتغيير سكنهم إلى قسم آخر في المدينة مثلا، أو تغيير المدينة أو هجرها، ولكن أيضاً افتقدوا طريقة حياتهم السابقة. ومن الفقدانات المعروفة الدلال. وأكثر من ذلك عديد من الأشخاص أصيبوا بالانعزال والانسحاب الاجتماعي بعدما عانوا من فقد ليس إنسان إنما أيضا قد يكون من فقد حيوانات أليفة عندهم ولقد شاهدت حالات كثيرة لأناس تعرضوا لارتكاس شديد من الأسى لفقد حيوان أليف أو طائر.

هذا الكتيب لن يتحدث عن كل هذا الكم الهائل من أنواع الفقد الذي يتعرض له الإنسان من لحظة ولادته وحتى وفاته، وإنما سيتطرق إلى أهم أنواع الفقد فقط، وهو استجابة لرغبة العديد من الأصدقاء والزلاء وكذلك استجابة لرغبة الكثير من أهالي الأطفال والمراهقين ليتعرفوا كيف يمكنهم تفهم الطفل والمراهق وكيف يمكنهم تفهم الآباء في سنوات الكهولة والشيخوخة من خلال حالات الفقد الرئيسية، وكيف يمكنهم التعامل مع هذه الحالات بأيسر السبل وأفضل الطرق وهذا ما حاولت جاهدا أن أعرضه بأسلوب تحليلي مبسط قدر الإمكان، ولا أدري نصيبي من التوفيق فيما ذهبت إليه.

عرضت في القسم الأول من هذا الكتيب عبر فصوله الأربع نظرتنا للحياة والمعاني الاجتماعية للمرض، من خلال مفهوم المرض ودور الحضارة المعاصرة في مساندة العلوم الطبية، وأدوار كل من الطبيب والمريض وثقافة المشافي والمراكز الطبية الحديثة المنتشرة في عصرنا.

في القسم الثاني من خلال فصليه عرضت ارتكاس الأطفال للمرض والاستشفاء والجراحة والعجز الجسدي وارتكاس العائلة والكاادر الطبي للضغوط والشدة..

في القسم الثالث من خلال فصوله الأربعة عرضت مفهوم الفقد والأسى والحداد عند الأطفال ومراحل الحداد عند الأطفال والهجر والاكساب في المراحل التطورية والحداد المرضي عند الأطفال.

نوع كبير من الفقد
لأي شخص هو عند
تعرضه لمرض جسدي.
وبالطبع فإن عملياته
البيتر أو أي عملياته
فيها ضياع لأقسام من
الجسم هي مصدر
كبير لشعورنا بالفقد

قد يشعر الإنسان
بالفقد عند اضطرابه
عمل أي من الأعضاء،
أو الاضطرابه ككل
كما يحدث في سن
اليأس عند الأنثى.

أيضا عرضت في القسم الرابع من خلال فصوله السبعة المنظورات الأخلاقية والمنظورات السريرية للطفل والمراهق المحتضر، وتحدثت عن فقدان جزء من الجسم، وفقدان شقيق، وفقدان أحد الوالدين، وفقدان زميل، وموت المراهق..

أما في القسم الخامس عرضت من خلال فصوله الفقد الفقد والأسى والحداد عند البالغين ومراحل الحداد والأسى الطبيعي والحداد المرضي والطبيب ودوره في الحداد..

في القسم السادس عرضت من خلال فصوله عن الاحتضار عند البالغ وعرضت لمحة تاريخية دينية إضافة إلى التطورات المعاصرة للعناية الطبية بالمحتضر ومراحل الاحتضار عند البالغ وتفرد تجربة الاحتضار.

وفي الختام عرضت ملخصا.....

بقي أن أقول كلمة حق.. لا يمكنني اعتبار هذا الكتيب تأليفا صرفا أو إعدادا وتأليفا أو حتى ترجمة، فالتأليف يجب أن يكون بالمجيء بشيء غير مسبوق، والإعداد والتأليف اعتدت في كتيبي على أن يكون على الأقل مزيد ونصف الكتاب تأليفاً وأقل من النصف الآخر إعدادا، والترجمة هي نقل شيء من لغة إلى لغة أخرى، وهذا الكتيب لا تتطبق عليه أي من تلك الحالات..

لكن فيه من كل ما ذكرت مطعما بخبرتي السريرية ورؤيتي التحليلية وهي مختلفة إلى حد كبير عن الطرق والأساليب التحليلية المتعارف عليها.. لقد حاولت أن أعرض بطريقة وأسلوب مبسط قدر الإمكان محتواه العلمي، ولكن لا يصل ذلك إلى مستوى التأليف الصرف، وفيه من الإعداد والترجمة، ولكن بطريقة وأسلوب وفق ما وفقت من فهم وخبرة.. وكنت مجبرا على الاعتماد بشكل كامل على الأبحاث الأجنبية إذ أن الأبحاث العربية في هذا المجال لم تنزل في مراحلها الأولى على أحسن تقدير.. وبشكل عام هذه الأبحاث جرت في بيئات ومجتمعات ومفاهيم وثقافات جميعها مختلفة عن بيئة ومفاهيم

هناك أيضاً أنواع أخرى من الفقدان تسبب ارتكاس حرمان مثل فقد المركز الاجتماعي، فقد العضوية في تجمع أو جماعة معينة، فقد بيت معين، فقد وظيفة، فقد ممتلكات شخصية معينة

كديد من الأشخاص أصيبوا بالانعزال والانسحاب الاجتماعي بعدما عانوا من فقد ليس إنسانا إنما أيضا قد يكون من فقد حيوانات أليفة عندهم ولقد شاهدت حالات كثيرة لأشخاص تعرضوا لارتكاس شديد من الأسى لفقد حيوان أليف أو طائر.

وثقافة مجتمعنا.. ومع ذلك حرصت بكل ما استطعت على الأمانة والدقة العلمية وبما لا يسيء للحرفية والمهنية..

إن الكثير من اللوحات الموجودة في متن هذا الكتيب هي للفنانة الألمانية **Käthe Kollwitz (1867-1945)** هذه اللوحات رغم أنها اعتبرت برأي النقاد إبداعا فنيا يجلب السعادة لكل من يشاهدها، فإن هذه الرسامة الكبيرة عاشت بؤسا فظيعا، إذ قتل ابنها بيتر في الحرب العالمية الأولى، وعندما وصل هتلر إلى الحكم عام 1933 اعتبرت أعمالها خارجة عن القانون من قبل النازيين، وأجبرت على التقاعد من أكاديمية الفنون البروسية، وسُحِبَت أعمالها من كل المتاحف الألمانية، وهُدِدت بالسجن من قبل الغستابو وكذلك زوجها الطبيب كارل كولفيتس الذي كرس حياته للاهتمام بالفقراء، مات زوجها في الحرب العالمية الثانية، وقتل حفيدها على الجبهة الروسية، وتهدم منزلها في برلين، وفي النهاية كانت مستعدة لنداء الموت وهي لوحتها الأخيرة التي رسمتها عام 1935 وانتهت منها عام 1945 وهي بعمر 78 عاما. في الختام أقول: علينا أن لا ننسى أن الحياة جميلة، ولكنها كئيبة في نفس الوقت، فكلنا مفروض عليه أن يفقد من يحب سواء بوفاتهم أو وفاتنا، وعبر كل القرون لاحظ العلماء والفلاسفة والفنانيين هذه الحقيقة المرة للوجود الإنساني.. لكن على الأطباء دون الناس جميعا بحكم مهنتهم تجاوز هذه المقولة في أحداث وجودهم اليومي وممارستهم المهنية، ومن ثم أن يستطيعوا ابتكار القدرة على مسح نهاية الحياة المطلقة مع أي وكل مريض. كلي أمل أن أكون قد وفقت لتقديم ما هو جدير بالزمن الذي سيبدد أثناء قراءة هذا الكتيب...

محمد الرحمن

بيروت - 22.03.2009

علينا أن لا ننسى أن
الحياة جميلة، ولكننا
كئيبة في نفس
الوقت، فكلنا مفروض
عليه أن يفقد من
يحب سواء بوفاتهم أو
وفاتنا، وعبر كل
القرون لاحظ العلماء
والفلاسفة والفنانيين
هذه الحقيقة المرة
للوجود الإنساني

مقدمة الكتاب : بروفييور يعي الرخاوي

هذا كتاب جيد، كتبه مؤلفه العالم الفاضل، باللغة العربية، من واقع ثقافتنا الخاصة، لعنا نتذكر معه أننا نفرح بالعربية، ونحزن بالعربية، ونحزن بالعربية، ونمرض بالعربية، ونشفى بالعربية، ونغضب بالعربية، إن أية محاولة لتشكيل عقولنا وثقافتنا ووعينا الجمعي والفردى بلغة غير لغتنا هي إغارة خطيرة تحول دون إسهامنا بما يمكن أن نبدعه من واقعنا، نتكامل به مع وعى وعقول غيرنا من البشر عبر العالم.

اللغة مثل الدين هي البنية الأساسية لأية ثقافة عبر التاريخ، ونحن لا نستطيع أن نضيف ما هو أصيل إلا انطلاقا من ثقافتنا وهي تتحاور مع كل اللغات والثقافات القابلة للحوار، والقادرة عليه، وهذا الكتاب يعلن بعض ذلك. هو كتاب جيد يعدُّ بكتب كثيرة لاحقة للمؤلف الفاضل، أو لمن يستلمهم بداياته، ممن يحملون همَّ تعريفنا بما هو نحن، مستعملين لغتنا نحن، من خلال خبرات هذا التخصص (الطب النفسى) وهو يلامس ثقافتنا طول الوقت، رضينا أم لم نرض.

وهو كتاب صغير نوعا استقبلته باعتباره فهرسا لكتب كثيرة قادمة، للمؤلف، نحن فى أمس الحاجة إليها، وبلغتنا العربية، الكتاب طموح وعنوانه يظلم محتواه، وأيضا يعدُّ بأكثر مما يرد بين دفتيه، وقد امتد ما بين مرارة الحزن إلى تجليات الفقد والأسى، وهي أبعاد تتداخل أحيانا لكنها ليست

هذا كتابه جيد، كتبه مؤلفه العالم الفاضل، باللغة العربية، من واقع ثقافتنا الخاصة، لعنا نتذكر معه أننا نفرح بالعربية، ونحزن بالعربية، ونحزن بالعربية، ونمرض بالعربية، ونشفى بالعربية، ونغضب بالعربية، إن أية محاولة لتشكيل عقولنا وثقافتنا ووعينا الجمعي والفردى بلغة غير لغتنا هي إغارة خطيرة تحول دون إسهامنا بما يمكن أن نبدعه من واقعنا، نتكامل به مع وعى وعقول غيرنا من البشر عبر العالم.

مترادفة. الموضوع شديد الأهمية، مترامى الأطراف، ويحتاج لمزيد من البحث والاستشهاد بالحاضر مضافا إليه زيارات انتقائية إلى التراث، وهو مقسم إلى أقسام، لا أعرف لماذا ليست فصولا أو أبوابا، ربما لأن كل قسم يعد بكتاب بأكمله في المستقبل القريب بإذن الله؟

القسم الأول عام شديد العمومية حيث يتناول " نظرتنا للحياة، ومعنى المرض والمفاهيم المتنوعة حوله"، وهو يعرج إلى أدوار الطبيب وثقافة المشافي، ومفهوم المرض ومفهوم العلاج بشكل مركز أشد التركيز في حدود ضرورة التقديم .

أما القسم الثاني فهو دراسة واعدة تعرض لعناصر النمو حتى المراهقة ، ثم يستطرد ليشير إلى الكادر الطبي والشدة، ثم يتطرق إلى الحزن والفقد في هذه المرحلة بشكل متواضع وغير مباشر .

فإذا وصلنا إلى القسم الثالث بدا عرض جوهر الكتاب عن الفقد والأسى والحداد أكثر وضوحا وتحديدا ، مدعما بحالات إكلينيكية واضحة ومفيدة.

ثم نجد أنفسنا في وسط العائلة كشبية متداخلة متفاعلة، يعرض الكتاب لارتباكها بالفقد والحزن اقترابا وتهديدا وفعلا، وعلاقة ذلك بالكادر الطبي: الطبيب والتمريض، فيمثل هذا القسم الخطوط العريضة لمشروع كتابين آخرين على هامش عنوان هذا الكتاب.

ويختتم المؤلف النصف الأول من الكتاب بقسم أكثر تحديدا فيما يتعلق بالفقد والأسى، والحداد وهو أقرب الأقسام إلى العنوان، لكنه يبدأ في رحاب مرحلة الطفولة، ليكن، فهو يعود يتناول نفس القضية عند الناضجين وكبار السن في القسم الخامس "الفقد والأسى والحداد عند البالغين"،

وقد لاحظت بصفة عامة أن طموح المؤلف وهو يرغب في توصيل أكبر قدر من المعلومات عن مواضيع كثيرة معا ، في هذا الحيز الصغير، قد اضطره إلى كل هذا الاستطراد المتشعب.

اللغة مثل الدين هي
البنية الأساسية لأية
ثقافة عبر التاريخ،
ونحن لا نستطيع أن
نضيف ما هو أصيل إلا
انطلاقا من ثقافتنا
وهي تتجاوز مع كل
اللغات والثقافات
القابلة للحوار،
والقادرة عليه، وهذا
الكتاب يعلن بعض
ذلك

الكتاب طموح
ومعناؤه يظلم محتواه،
وأياها يعد بأكثر مما
يرد بين دفتيه، وقد
امتد ما بين مرارة
الحزن إلى تجلياته
الفقد والأسى، وهي
أبعاد تتداخل أحيانا
لكنها ليست مترادفة

وقد تناول الكتاب أيضا قضية الاحتضار وما يحيط به عند المريض وذوية عند الصغار (القسم الرابع والسادس)، وهذا بعد آخر يلامس الفكرة المحورية، وإن كان يحتاج إلى أن يرتبط بثقافتنا بشكل متميز نظرا لأن هذه المنطقة هي من المناطق التي تختلف فيها الثقافات اختلافا بينا، وفي هذا الصدد يجمع هذا الجزء من الكتاب بين تقديم معالم نفسية المريض في هذه "المرحلة النهائية" من الحياة، وبين نفسية من يحيط بالمريض من ذويه قرب، وبعد، النهاية، وهما بعدان مختلفان بشكل ما.

إن تناول طبيعة الموت ومعناه، باللغة العربية، في ثقافة منغرسه تاريخا وحاضرا في أشكال وتجليات متنوعة من التدين والتصوف والإيمان: يحتاج إلى الغوص في بحث الاختلافات الجوهرية والفلسفية والنفسية والطبية من منطلق هذه الثقافة بشكل أعمق، وقد تناول الكاتب هذا البعد بشكل شديد الإيجاز لدرجة تعد بالمزيد وتحفز إلى انتظار عمل مستقل جامع. الموت في ثقافتنا له معان كثيرة متداخلة تكمل بعضها بعضا، ولكن يتفق أغلبها في أنه عندنا يمثل حقيقة ما هو "انتقال مفتوح" أكثر منه "نهاية مغلقة"، فهو انتقال من الوعي الشخصي إلى الوعي الكوني، (متون هرمس) أو انتقال من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة (الأديان السماوية) أو انتقال من مرحلة نمو محدودة إلى مرحلة نمو ممتدة "إعادة ولادة": (كاتب هذه المقدمة)، كل ذلك يجعل هذه الخبرة مختلفة تماما في ثقافتنا عنها في ثقافات أخرى تعامل الموت باعتباره عدما خالص، أو فقدا كاملا، أو نهاية مغلقة، ولعل عذر المؤلف أنه لم يخصص كتابه كله لهذا الموضوع تحديداً لكن ما وصلني من العنوان، ومن أغلب الأقسام أثار عندي أملا حقيقيا أن يتناول المؤلف في عمل لاحق هذه الفروق الثقافية الشديدة الأهمية، ومدى تأثيرها على المحتضر وعلى الأهل كباراً وصغاراً بدرجات مختلفة، وتفاعلات متنوعة،

لاحظت بصحة عامة أن
طموح المؤلف وهو
يرتبط في توصيل
أخبار قدر من
المعلومات عن
مواضيع كثيرة معا،
في هذا العيز الصغير،
قد اضطره إلى كل
هذا الاستطراد
المتشعب

فستان بين نقلة وعى، أو نقلة حياة يعلنها حدث الموت كما يتجلى في ثقافتنا وتديننا ولغتنا ، وبين تناول نفس المفهوم - الموت- باعتباره نهاية وفقد عدمى مغلق.

خلاصة القول: إنه كتاب جيد، ظلم عنوانه محتواه، ففاض محتواه عن وعود عنوانه.

ثم أنتقل بملاحظة عابرة على العنوان الذى يبدأ تحديداً بتساؤل جذاب: "كيف نفهم؟" نفهم ماذا؟ "نفهم الفقد ومرارة الحزن والأسى"، فى رأى أننا يمكننا أن نحاول أن نفهم الفقد، لكن أن نعطف على ذلك دعوة أيضا لفهم "مرارة الحزن والأسى" فهذا ما وجدت نفسى أتخفظ عليه. إنك يمكن أن "تفهم" الفقد، والغياب، أما أن تفهم المرارة فهذا بعد واحد غير كاف غالباً، فحن نعاش مرة الحزن ونستلهمها من تجليات الوجدانات المرتبطة بها أكثر من أننا نفهمها، وهذا يحتاج مع الخبرة والتمثل والتقمص الرجوع إلى لغتنا القادرة المحيطة، نحن نعيش الحزن، وقد نعرفه، ولكننا حين نفهمه أو نحاول أن نفهمه أساساً أو تماماً بالعقل والحسابات قد يتسرب منا ويختنق فى تشكيله الرمزي، ومنطوقه الشائع. الحزن أعمق وأخطر وأجمل من أن نفهمه، والمصيبة التى حلت بنا أننا استبعدنا بالتدرج لفظ الحزن (الذى لم أجد له مقابلاً جامعاً مانعاً فى اللغة الإنجليزية)، لنحل محله لفظ "الاكتئاب" ثم تتجلى الكارثة أكثر حين يحل محل هذا اللفظ أيضاً (الاكتئاب) لفظ معرب هو "دبرشن"، ويرغم أنه لا وجود للباء الثقيلة P فى اللغة العربية أصلاً، ولا حتى فيما أعرف من اللغات العامية (العربية) المختلفة، إلى أن أغلب المرضى والأسوياء يستعملون كلمة "دبرشن" أو "دبرسيون" محل الحزن بصوره العظيمة الغائرة والكاشفة، وأيضاً بصوره السلبيه اللزجة الطفيلية النعابية، وهما صورتان متضادتان، فتختلط الأمور وتتداخل المشاعر التى تميز ثقافتنا فى ثنايا هذه الأصوات المستوردة، والرموز اللاتينية المعربة.

إن تناول طبيعة الموت ومعناه، باللغة العربية، فى ثقافة منغرسه تاريخاً وحاضراً فى أشكال وتجليات متنوعة من التدين، والتصوف والإيمان: يحتاج إلى الغوص فى بحث الاختلافات الجوهرية والفلسفية والنفسية والطبية من منطلق هذه الثقافة بشكل أعمق، وقد تناول الكاتب هذا البعد بشكل شديد الإيجاز لدرجة تعد بالمزيد وتحفز إلى انتظار حمل مستقبل جامع

وقد سبق أن تناولت هذه القضية فى تحذيرى من مخاطر هذا التسحب المغير على ثقافتنا ومشاعرنا من خلال تشكيل وعينا بلغة هجين، قادمة من ثقافة مستوردة، وذلك فى أطروحتى عن "مخاطر الترجمة بين تسطيح الوعى واختزال المعرفة" التى يمكن الرجوع إليها فى موقعها.

وبعد

فإنى إذ أشكر المؤلف العالم الإكلينكى الجاد والحادق خبرة وإحاطة، أستسمحه فى هذه المقدمة أن أقدم بعض اجتهاداتى فى استلهاهم لغتى: أتعرف من خلالها على ما هو "حزن"، وإلى درجة أقل، ما هو "هم"، لعلى أظهر بذلك فكرتى عن علاقة اللغة ، والشعر خاصة، بأصول الظاهرة الوجدانية فى ثقافتنا المتميزة، مما يؤثر حتما فى مجمل ثقافتنا، بما فى ذلك ممارستنا الإكلينكية المتميزة، أو التى ينبغى أن تتميز أكثر فأكثر باستمرار.

الحزن - فى عمق أصوله - هو جزء لا يتجزأ من طبيعة الوجود البشرى: مواجهة فدفعاً، وهو ليس بالضرورة ضد الفرح، لكن ما شاع عن بديله المسمى "اكتئاب" جعله كذلك، الحزن هو لفظ آخر له مضمون أشمل، خاصة إذا ما أخذنا فى الاعتبار تنوعاياته التشكيلية. إن أصوله تتضمن قدراً غير قليل من إحياءات الجدية والخشونة والدفع بحيث يصعب فصل هذه الإحياءات عن متضمنه العاطفى (الانفعالى)، فالحزن أيضاً - ضد السهل المنبسط، حزن المكان حزناً: خشن وغلظ، والحزن: ما غلظ من الأرض، والحزن فيه مواجهة وعناد ولقاء وشدة

"شيخ إذا ما لبس الدرع حرن سهل لمن ساهل حرن للحرن"،

إن، فاللغة العربية تعلمنا ألا نربط ما هو حزن بما هو : كسرة، أو هلكتة، بل تمتد بنا إلى مضامين أخرى لنفس الكلمة تشمل الحفز والمواجهة والعناد والقوة.

الموت فى ثقافتنا له معان كثيرة متداخلة تكمل بعضها بعضاً، ولكن يتفق أغلبها على أنه عندنا يمثل حقيقة ما هو "انتقال مفتوح" أكثر منه "نهاية مغلقة"، فهو انتقال من الوعى الشخصى إلى الوعى الكونى، (متون هرمس) أو انتقال من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة (الأديان السماوية) أو انتقال من مرحلة نمو محدودة إلى مرحلة نمو ممتدة "إعادة ولادة

هذه الخبرة مختلفة تماماً فى ثقافتنا عنها فى ثقافات أخرى تعامل الموت باعتباره عدماً خالصاً، أو فقداً كاملاً، أو نهاية مغلقة

وبالرجوع إلى لفظ Depression في اللغة الإنجليزية (الوصية الأولى على وجودنا المستعار) نجد أن هذا اللفظ الإنجليزي إنما يفيد أساساً ذلك الغم المنكسر الهابط في أضعف تشكيلاته، وهو مرتبط بـ "الهبوط" في شكله العياني غالباً، ولعل هذا هو ما دعا أستاذنا المرحوم الدكتور عبد العزيز القوصي أن يقترح ترجمة هذا اللفظ Depression إلى لفظ "الإنهياط"، وليس "الاكتئاب".

وفيما يلي بعض مقتطفات من الشعر العربي الحديث خاصة، وهو يتناول الحزن بتشكيلات ينبغي ألا تغيب عن طبيب نفسى ولد عربياً، يستمع إلى مريضه بالعربية، ويعالجه بالعربية، هذه المعاشية للغة هي بداية التعرف على تشكيلات وجداننا في الصحة والمرض، وقد فعلت ذلك لأننى اكتشفت أن الأدب العربي، والشعر خاصة، كان مصدر تعرفى على الحزن في ثقافتنا أكثر من فهمى له، وسوف أورد المقتطفات دون تعليق مطول، إلا في حالة قصيدة صلاح عبد الصبور لما حوت من تشكيلات متنوعة دالة تعيدنا في أصل معاشية الحزن بتجلياته الرائعة، بل وتصنيفاته المختلفة: الإيجابية والسلبية، مما هو جدير أن يكمل أو يسبق محاولتنا "فهمه".

أولاً: مقتطفات من قصيدة صلاح عبد الصبور :

" أغنية إلى الله !! " :

(1) حزنى غريب الأبوين

لأنه تكون ابن لحظة مفاجئة

ما مَحْضَتْهُ بطن

أراه فجأة إذ يمتد وسط ضحكتي

نلاحظ كيف أن الشاعر يبدأ بأن يكتشف في الحزن قدرته على ذلك

كيف نفهمهم؟! نفهم
ماذا؟ "نفهم الفقد
ومراة الحزن والأسى"،
فى رأى أننا يمكننا
أن نحاول أن نفهم
الفقد، لكن أن
نعطفه على ذلك
دعوة أيضا لفهم
"مراة الحزن والأسى"
فهذا ما وجدته نفسى
أتحفظ عليه

يمكن أن "نفهم"
الفقد، والغيب، أما
أن نفهم المراة فهذا
بعد واحد خير كإف
نألبا، فنحن نعيش
مراة الحزن ونستلهمها
من تجليات الوجدانات
المرتبطة بها أكثر من
أننا نفهمها، وهذا
يحتاج مع الخبرة
والتأمل والتفحص
الرجوع إلى لغتنا
القادرة المحيطة

الحضور المفاجيء، الذى لا ينفى تراكما سابقا صامتا، وهو أيضا فى هذا المقطع يعارض ذلك الاستقطاب المعجمى الذى يضع الحزن والفرح على أقصى طرفين متباعدين متضادين، فهو يكتشف حزنه ممتدا وسط ضحكته، ثم يروح يصنف الحزن كما عاشه، (ويعيشه) لاكما فرض عليه (أو استورده)، ولا كما نحاول أن "نفهمه"، وهكذا نلاحظ كيف أن الشعر قادر على إعادة تشكيل الوعى من خلال إعادة تشكيل اللغة، ثم يمضى صلاح يقول:

(2) لقد بلوت الحزن حين يزحم الهواء بالدخان

فيوقظ الحنين

ويهمنى هنا أن نتوقف عند فعل "يوقظ"، وإلى درجة أقل "الحنين"، لما فى ذلك من إشارة إلى قدرة الحزن على الحفز والبعث، ثم إلى ارتباطه "بالعلاقة بالآخر"، وكل ذلك يتتافى مع ما يشيع عن قصر فهم ما هو "حزن" (بعد زحف لفظ "الاكتئاب" المصطلحى عليه) على ما هو إعاقة وهبوط هامد، ثم ينتقل الشاعر إلى حركية الحزن المتحدية الأقوى.

(3) ثم بلوت الحزن حين يلتوى كأفعوان

فيعصر الفؤاد ثم يخنقه

وبعد لحظة الإسار يعتقه

وهنا يجدر بنا أن نستعيد ما ذهبنا إليه لنؤكد - من واقع لغتنا العربية - هذه القدرة الطاغية التى يتمتع بها الحزن (هذا الحزن) فى إغارته المتمكنة على حركية المشاعر.

(4) ثم بلوت الحزن حينما يفيض جدولا من اللهب

ومن جوف هذه النار المتدفقة (جدولا)... يشرق الجديد نورا بعثا:

(5) يتجمع فى إشراقة الغد

وهكذا نلاحظ كيف أنه لأول مرة يستعمل الشاعر لفظ "الكئيب"، فى

الحزن أعمق وأخطر
وأجمل من أن نفهمه،
والمصيبة التى حلّت
بنا أننا استبعدنا
بالتدريج لفظ الحزن
(الذى لم أجد له
مقابلا جامعا مانعا فى
اللغة الإنجليزية)، لنحل
محلّه لفظ "الاكتئاب"
ثم تتجلى الكارثة
أكثر حين يحل محل
هذا اللفظ أيضا
(الاكتئاب) لفظ
معرب هو "دِبْرَشَن"

زمن يمضي، دون مواجهة، وفيما يتعلق بما هو "مات"، وكأنه قد التقط ما في لفظ الكآبة من فراغ ساكن، بالمقابلة بما استشعره في الحزن من حركة باعثة، حتى أنى رجحت أن جذور هذا الفرح لم يروها إلا نهر الحزن، فدبت الحياة في الكآبة الممات، كما يلي:

(6) ثم يمر ليلنا الكئيب

ويشرق النهار باعثا من الممات

جذور فرحنا الحبيب.

ثم يواصل الشاعر مواجهته للظاهرة في حركتها الجدلية المولدة، فيتبين له بعدا آخر، لعله النقلة بين ما هو حزن، وما هو اكتئاب، حين يعجز الأول أن يبعث، أن يولد، أن يفجر، فلا يعود حزنا، أو هو حزن لم يألفه، لا يعترف به، وكأنه يرفض - معنا - أن يكون هو حزنا الذي يحركنا، فلعله الحزن المفروض علينا شائها، أو مستوردا، أو مجهضا، أو عنينا:

(7) لكن هذا الحزن مسخ غامض غريب

وبنظرة متأنية فاحصة لجدل الشاعر مع لفظ الحزن وهو يعايش الظاهرة المحتمل أن يحتويها، نجد أنه نجح بدرجة مناسبة في أن يعيد تخليق التراكيب اللغوية المتضفرة، والمتألفة، والمتاقضة، والمتعاقبة، والمتبادلة، بأمانة مغامرة دون أن يركن إلى مضمون سابق ساكن، أو يحبس نفسه في ايحاءات مصطلح خامد (مستورد)، أو معجم حامل ميت، وهذا هو الشعر.

وإذا كنت قد اكتشفت مؤخرا (أنا وتلاميذ مدرستي) أن علاج المريض النفسي بالمعنى الحقيقي ليس إلا قراءة نقدية للنص البشرى، حيث يشاركنا النص في إعادة تشكيله، فإن قراءة كل نص بشري ينبغي أن تكون بلغته الأولى والأصيلة، وهي خليقة أن نتعرف من خلالها على الظاهرة المرضية، في ثقافة المريض الأصلية، ومن ثم يصح النقد بنفس لغته في عمق ثقافته، فهو العلاج.

الحزن - في عمق
أصوله - هو جزء لا
يتجزأ من طبيعة
الوجود البشرى:
مواجهة فدفعاً، وهو
ليس بالضرورة ضد
الفرح، لكن ما شاع
عن بديله المسمى
"الكآبة" جعله
كذلك، الحزن هو
لفظ آخر له مضمون
أشمل

إذا كنت قد
اكتشفت مؤخرا (أنا
وتلاميذ مدرستي) أن
علاج المريض النفسي
بالمعنى الحقيقي ليس
إلا قراءة نقدية للنص
البشرى، حيث
يشاركنا النص في
إعادة تشكيله، فإن
قراءة كل نص بشري
ينبغي أن تكون
بلغته الأولى والأصيلة

ثم إنه يبدو أن مراجعتي للتعرف على الحزن من خلال استلهاماتي من النص البشري (المريض، وشخصي)، قد امتزجت مع استلهامي النص الأدبي نقدا ثم إنشاء (فى الشعر خاصة)، حتى هاج بى شعري شخصيا (على تواضعه) فتشكل الحزن لى فى قصائد بالفصحى والعامية، أورد منها أولا هاتين القصيدتين القصيرتين لعلهما تفيان بما أريد تقديمه من أن بداية التعرف على ما هو وجدان فى ثقافتنا، تنتطلق من لغتنا بلا بديل.

القصيدة الأولى :

حزنى كلمة

-1-

حُزنى كلمة،

تمحو صَمَتَ الموت.

حزنى أقوى، أظهرُ من شمس البهجة.

حُزنى أصلُ الأشياء.

-2-

يغمزنى، يغمزنى حتى أرنبة الأنف،

لا أغرقُ،

لا أسبحُ،

تتباعد كلُّ الشيطان.

يتكاثرُ خدرالغربة والإنهاك.

أتمسك بحبال الأنفاس المقطوعة،

يحتدّ الوعى،

فأخاف.

-3-

يكفينى حرفٌ ضلَّ طريق الكلمة.

أن مراجعتي للتعرف
على الحزن من خلال
استلهاماتي من النص
البشري (المريض،
وشخصي)، قد امتزجت
مع استلهامي النص
الأدبي نقدا ثم إنشاء
(فى الشعر خاصة)،
حتى هاج بى شعري
شخصيا (على تواضعه)
فتشكل الحزن لى فى
قصائد بالفصحى
والعامية

أجمع أطراف المعنى.
"لا تمضى،
لا تقترى".
لأصارع موتى وحدى
- دون غيابك -
يصرعُ حزنى الأشهب.

1982/12/8

(لا تعليق: إلا إشارة محدودة إلى أن الذى يصرع الموت وحيدا هو "حزنٌ أشهب" فى حضور الآخر فى الوعى)
القصيدة الثانية :

الريح والأحزان

-1-

تتعالى أبواق الإنقاذ المتكاثرة المرعبة الخائفة العجلى.
يتحَفَز حزنٌ أبلج؛
حزن أرحبُ من دائرة الأشياء المنثورة
الأشياء العاصية النافرة الهيجى،
حزن أقوى من تشكيل الكلمات،
حزنٌ يصرخ بكماً،
يشرق ألماً.
حزنٌ يستوعبُ أبناء الحيرة
يجمع أطياف الفكرة،
يوقد نار الأحرف والكلمات.
حزنٌ أسلس من ماء الدمعة،

إنهى متحيز للغة العامية
كذلك، بكل اللغات،
فهى لغة الأم، فى حين
أن الفصحى هى "اللغة
الأم"، وكلاهما يساهم
فى تشكيل وعيها
وثقافتنا حتما

أعتى من لفح الجمره.

حزنٌ يحنو، يُدمى، يلهُم، يصرخُ، يُحيى روحا ميّنةً ضجّرةً.

1982/5/6

(لا تعليق:إلا إشارة إلى كيف أن الحزن يحيى روحا مية ضجرة)

فبأى منطق - بالله عليكم - نبدأ "فهنا" للحزن - حصريا !! - من ثقافة أخرى، بلغة أخرى؟

بل إنى متحيز للغة العامية كذلك، بكل اللهجات، فهي لغة الأم، فى حين أن الفصحى هي "اللغة الأم"، وكلاهما يساهم فى تشكيل وعينا وثقافتنا حتماً، وقد حضرتتى صورة شعرية للحزن النابع من الرؤية الصادقة، والبصيرة الناقدة، حين صورثُ بالعامية المصرية، بقرة خلعت "الغَمَى" (غطاء العينين) من على عينيها، فرأت الخدعة التى كانت فيها وهى تدور فى نفس الدائرة، وقد غطوا عيونها حتى تتصور أنها تسير إلى الأمام، وحين أَلَمَتْها هذه الرؤية البصيرية غمرها ذلك الحزن اليقظ، الذى يقابل ما أسميته فى تقسيماتى "حزن المواجهة"، قلت بالعامية المصرية على لسان البقرة وهى تكتشف الخدعة إذ ترى زميلتها تدور مكانها بعد أن ربطوها هى - مفتحة العينين- فى شجرة قريبة، قلت على لسانها :

....

أنا كنت بالفّ ومشّ دَارِيَّةٌ ، كان لأزْمِثُهُ إِيَّه؟

بنتشيلُوا الغُما من عَلَى عيني وثقُوني ليّه؟

عَلْشانُ أَرْتَاح؟

هَيّ دى راحَة إني أشوف ده ؟

لو حتى لبِسْتِ الغُمَى تانى مانا برضه حاشُوف.

وساعتها يا ناس:

مش حاقدر أَلْف.

وجبت أن ثمة علاقة
خليقة بالعناية ما بين
"المهم" بمعنى الحزن،
والمهم بمعنى العزم
(على)، وأيضاً: المهم
بمعنى الشدة (بما
يحمل معانى الجدية
والصعوبة والقوة
جميعاً/ "المهمات"
من الأمور
"الشدائد")

.... ما هو لازم الواحد ما يشوفشى،

لو كان حايّف.

(3)

الله يسامحكّم، دلوقتى:

لا انا قدرة ارتاخ،

ولا قدرة ألف.

لا الدمعه بتئزل،

قولا راضية تجف .

هامش عن "الهم":

أما عن لفظ "الهم"، وهى الكلمة الأقرب للحنن بالعربية دون أن تكون مرادفة، فقد أوجت لى بهامش من إحياءات أخرى لعلها توضح وجهة نظرى أيضا على الوجه التالى :

لقد وجدت فى لفظ الهم وشكله وحركته ما يستلزم الإشارة إليه هنا كمثال **توضيحى** ، بادئا بالعلاقة بين ما هو "هَمّ" وما هو "هَمّة" ، فالهم لغة ينتمى أساسا إلى العزم على القيام بأمر ما "هَمّ بالأمر ولم يفعله"، لكننى لم أرتح للاستسلام هكذا لشرط أنه لم يفعله، اللهم الا إذا أضفنا لفظ "بعد" أى أنه لم يفعله بعد" - ذلك أنى حين عايشت اللفظ من الممارسة الذاتية والمهنية والإبداعية، رجحت أن ثمة علاقة خليقة بالنعانية ما بين "الهم" بمعنى الحزن، والهم بمعنى العزم (على)، وأيضاً: الهم بمعنى الشدة (بما يحمل معانى الجدية والصعوبة والقوة جميعاً/ "المهمات" من الأمور "الشدائد") - وكل هذا يقربنا أكثر فأكثر من المعانى الإيجابية التى استوحيناها من حركية لفظ "الحزن" فكلاهما (لفظاً: الحزن والهم) إنما يؤكدان كيف أن الظاهرة التى تشملهما أو تجمعهما أو يحومان حولها.. ، هى ظاهرة تتحرك لغويا/كيانيا،

أن تكون بداياتنا من
لغتنا الغائبة هى
كياننا - وليس من
المصطلح المجلوب
إلينا - هى السبيل
الصحيح للتعرف على
حقيقة مشاعرنا
وطبيعة وجودنا

من المواجهة : إلى الألم: إلى العزم: إلى الشدة، بما يشمل الخشونة والصلابة، وكل ذلك يناقض معنى الكآبة (كما قدمنا) لغة ومصطلحا.
وقد تصبح الصورة أكثر اقترابا فوضوحا إذا استشهدنا بموقف بعض الشعراء القدامى مما هو "هم" بالمعنى الذى رجح عندنا:
يقول ذو الرمة، وهو يصور الهمّ ضيفا يحضر فنكرمه كما نقرى الضيف، حتى يمضى، يقول ذو الرمة :

وكنت اذا ما الهمُّ ضافَ قريئُهُ مواكبة ينضو الرعانَ ذميلها

فالمهم هنا يأتى ضيفا، فيكرمه الشاعر ويحسن وفادته، إذ يواكبه صبرا وتقبلا وتحديا واثقا من أن السير الحثيث، وحمية الحركة، خليقان بأن ينضوا عنه الحزن، وهذا الموقف الواعى هو أرقى بكل مقياس مما أصاب مشاعرنا نتيجة للإغارة الاكثابية المستوردة، والتي جعلت الهم جسما غريبا ونشازا منفرا ينبغى التخلص منه أو اخفاؤه، نفورا ورفضا.

أما امرؤ القيس، فهو يلتقى بالهم، أو بأنواع الهموم، فى اختيارٍ وجودى مواجه حين يرخى الليل - كموج البحر - سدوله "علىّ بأنواع الهموم ليبتلى"، وهو يتلقى الهموم يهيجها الشوق روادعا "وهاج بى الشوق الهموم الروادع".
ألا يكفى كل هذا، وغيره كثير، أن ينبهنا إلى أن تكون بداياتنا من لغتنا الغائرة فى كياننا - وليس من المصطلح المجلوب إلينا - هى السبيل الصحيح للتعرف على حقيقة مشاعرنا وطبيعة وجودنا .

خلاصة القول: إن بين أيدينا كتابا جيدا يفتح لنا آفاقا بلا حصر، ليس فقط لنفهم الفقد ومرارة الحزن والأسى، ولكن لنفهم ونعيش ونعايش وندرك حقيقة الاختلافات الثقافية التى لا تؤثر فقط على ممارستنا الطبية الإكلينيكية، وإنما على تشكيل وعينا، أسوياء ومرضى.

إن بين أيدينا كتابا جيدا يفتح لنا آفاقا بلا حصر، ليس فقط لنفهم الفقد ومرارة الحزن والأسى، ولكن لنفهم ونعيش ونعايش وندرك حقيقة الاختلافات الثقافية التى لا تؤثر فقط على ممارستنا الطبية الإكلينيكية، وإنما على تشكيل وعينا، أسوياء ومرضى

**أدعو الله أن يوفقه،
وكل من يهمه الأمر،
أن يواصل عطائه
بلغتنا القادرة، نتعرفه
من خلالنا على هويتنا
وثقافتنا، تماما كما
نتعرفه على أنفسنا**

وانى إذ أشكر المؤلف القدير الذى فتح هذا الملف المهم، بما أورد، وبما يوحى به، أدعو الله أن يوفقه، وكل من يهمله الأمر، أن يواصل عطاءه بلغتنا القادرة، نتعرف من خلالها على هويتنا وثقافتنا، تماما كما نتعرف على أنفسنا، بل وكما ينبغى أن نستشرف منه مستقبنا، وذلك من خلال هذه الفرصة الإكلينيكية النادرة التى تتاح لنا لنقرأ النص البشرى، المريض والطبيب على حد سواء، كعينة بادئة، وليست بالضرورة ممثلة، فنبدع، ونضيف ونساهم من موقعنا فى مسيرة المعرفة واضطراب التطور، فى حوار الند مع ثقافات ولغات العالم، وذلك لمواجهة سلبيات الجارى عبر العالم أيضا، وهى ليست قليلة، ولا بالمصادفة.

وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر

يعيى الرخاوي

مصر

لنقرأ النص البشرى، المريض والطبيب على حد سواء، كعينة بادئة، وليست بالضرورة ممثلة، فنبدع، ونضيف ونساهم من موقعنا فى مسيرة المعرفة واضطراب التطور، فى حوار الند مع ثقافات ولغات العالم، وذلك لمواجهة سلبيات الجارى عبر العالم أيضا، وهى ليست قليلة، ولا بالمصادفة

مدخل للكاتب: د. جمال التركي

نقاط على الحروف...

لم يكن عميد الأطباء النفسانيين العرب البروفيسور يحيى الرخاوي ليمر مرور الكرام لافتقاده المقاربة الثقافية لفهم ظاهرة الفقد / الموت (مقدمه الكتاب) ، حتى عدّ الكتاب " فهرسا موسعا لكتب كثيرة قادمة " ، مضيفا في حقه أنه " كتاب جيد، ظلم عنوانه محتواه، ففاض محتواه عن وعود عنوانه" ان لم يكن العميد ليغفل عن غياب مقارنة بهذا القدر من الأهمية، كذلك لم يكن لشخصية علمية بحجم المؤلف أن تكتفي في سعيها لفهم "الفقد و مرارة الحزن والأسى" بعرض ما خلصت إليه العلوم الحديثة (الطبية منها و النفسية) و أن يتغافل عن مقارنة هامة و جوهرية تثري فهمنا لها، انطلاقا من خلفيتنا الثقافية المختلفة.

ورفعا لكل إلتباس حول هذه " الحلقة المفقودة "، أشير الى سعى الكاتب بداية ،ان يكون الكتاب مؤلفا مشتركا بيني و بينه، فكان أن عهد إليّ تناول المقاربة الثقافية انطلاقا مما نحن عليه و مما وصلنا... ، كمملا بذلك ما جاء في مقاربتة العلمية، ولما حالت دوني و ذلك معوقات... رأينا أن من الأفضل اصدار الجزء الأول من الكتاب (حتى لا يتأخر النشر أكثر مما تأخر) محتويا المقاربة المعرفية العلمية للموضوع على ان يتبعه لاحقا الجزء الثاني محتويا مقارنة الموضوع من منظور ثقافي".

سعى الكاتب بداية ،ان يكون الكتاب مؤلفا مشتركا بيني و بينه، فكان أن عهد إليّ تناول المقاربة الثقافية انطلاقا مما نحن عليه و مما وصلنا... ، كمملا بذلك ما جاء في مقاربتة العلمية

لما حالت دوني و ذلك معوقات... رأينا أن من الأفضل اصدار الجزء الأول من الكتاب (حتى لا يتأخر النشر أكثر مما تأخر) محتويا المقاربة المعرفية العلمية للموضوع على ان يتبعه لاحقا الجزء الثاني محتويا مقارنة الموضوع من منظور ثقافي".

هل يكتمل الفهم يوما ...

إذا كان اكتمال الفهم اقتراب من اللانهاية... أتى لنا بلوغها و أتى له أن يكتمل ... إن كان الفهم الكامل/المطلق من صفات اللامحدود الذي أودع أسرار خلقه ... أتى للمحدود و بما جهز به من آليات محدودة الوظيفة (العقل، الوعي و الإدراك) ان يكتمل فهمه.

ان كان فهم الأنسان يرقى بما تراكم لديه من خبرات و معارف و علوم متجددة دوما... أتى له أن يركن الى فهم ثابت يسكن إليه و كل ما يحيط به يجري (يتحرك) لأجل مسمي... و فوق كل ذي علم عليم.

إن كان فهما لن يكتمل يوما رغم أنه يرقى بتراكم الخبرات جيلا بعد جيل ... حسبنا شرف السعي لإثراء الفهم بما وصل الى و عينا / لاوعينا، في زمن ما و في مكان ما، بذلك نكون أدينا أمانة الشهادة التي كلّفنا بها و قبلناها يوم شهدنا عليها... " و أشهدهم على أنفسهم... قالوا بلى شهدنا...". في هذا الإطار يدخل سعي المؤلف تأسيس سلسلة اصدارات عنونها بـ " كيف نفهم... " و لا زال يسعى، وما نقدم له اليوم " كيف نفهم ...الفقد و مرارة الحزن و الأسى " هو احد ثمار هذا السعي المبارك.

الفقد/الموت.. المنظومة الفكرية والتداعيات النفسية

شرف لي كتابة كلمة استهلال كمدخل لأحد مؤلفات الأستاذ الدكتور عبد الرحمن إبراهيم، و هذا الشرف يكون مضاعفا إذا قدم للكتاب عميد الطب النفسي العربي البروفيسور يحيى الرخاوي، و مع مضاعفة الشرف تتضاعف المسؤولية، و ماذا عساي أن أضيف لمن قدم له الأستاذ العميد... لذا سأكتفي ببعض الإشارات في الموضوع من المنظور الثقافي علّها تكون مدخلا لفصول المقارنته العلمية المعرفية للكتاب، و هي لا ترقى الى مقدمة ثانية (لا أسمح لنفسي أن أقدم لكتاب حضي بشرف تقديم الرخاوي له).

إذا كان احتمال الفهم اقترابه من اللانهاية... أتى لنا بلوغها و أتى له أن يكتمل

إن كان الفهم الكامل/المطلق من صفات اللامحدود الذي أودع أسواره خلقه ... أتى للمحدود و بما جهز به من آليات محدودة الوظيفة (العقل، الوعي و الإدراك) ان يكتمل فهمه

ان كان فهم الإنسان يرقى بما تراكم لديه من خبرات و معارف و علوم متجددة دوما... أتى له أن يركن الى فهم ثابت يسكن إليه و كل ما يحيط به يجري (يتحرك) لأجل مسمي... و فوق كل ذي علم عليم

لجدال ان "الفقد" من سنن الحياة، ليست العمليات الأيضية في الجسم من "هدم/فقد" و "بناء/خلق"، أساس النمو و التطور، إنّ "الفقد" من سنن الحياة و لا غنى عنه لاستمرارها و تواصلها... ألا تفقد" الخلية الأم" حياتها وهي تنقسم نصفين لتهبها بقدرة خالقها الى خليتين، ليس كل ما في السماوات و الأرض الى فناء / "فقد/موت"، ألا يولد الإنسان و يحمل في ثنايا جيناته برمجة فناءه/فقدته/موته (كل شيء هالك إلا وجهه...)، ان كان قدرنا ان نحيا و "الفقد/الموت" يترصدنا، ألا يكون علينا أن نتعايش معه بوثاق و نتقبله باطمئنان كظاهرة طبيعية هي "انتقال مفتوح"، تحفزنا نحو الأفضل استعدادا لمرحلة تليها و ليست "تهدية مغلقة" و عدم خالص (الرخاوي) تبعث في الإنسان "الحيرة و الارتباك" لما ينتظره من مصير، فيرتفع مستوى القلق النفسي عنده و يفقده اطمئنانه، محدثة اضطرابات في النفس، التي وان اختلفت مظاهرها يبقى منشأها واحد " الخوف من المصير". إن السعي لفهم اسرار الفقد/الموت بما هي "انتقال مفتوح"، يحفز ما اودع فينا من طاقات للخلافة على الأرض، لأداء رسالة كلفنا بها ، حتى نمر الأرض بالخير و الصلاح، على مدى العمر انطلاقا من بداية الوعي الى أن ترجع النفس "المطمئنة" الى خالقها، و سنحاسب عنها يوما.

إن كان الإتفاق شبه حاصل حول معنى " الفقد / الموت" و ما يؤول اليه من هتك و وتفكك و انحلال لا رجعة فيه (دنياويا)، إلا أن الإختلاف يبقى قائما حول مظاهر ارتكاساته النفسية، سواء لدى المرضى الذين أشرفوا على النهاية أو لدى الذين افتقدوا الأهل و الأصدقاء و الأحباب، لما يمثله " الفقد / الموت" ، من صدمة نفسية عندهم، يختلف وقعها باختلاف أهميته المفقود في جهازهم النفسي و "المنظومة الذهنية/ العقائدية" التي يحملونها. ان كانت تصنيفات الطب النفسي الحديث تحفل بوصف عديد المظاهر

إن كان فهمنا لن
يكتمل يوما رغم أنه
يرقبي بتواكف الخبرات
جيلا بعد جيل ... حسبنا
شرفه السعي لإثراء
الفهم بما وصل الي و
عينا / لاوعينا، في زمن
ما و في مكان ما

لجدال ان "الفقد"
من سنن الحياة،
البيست العمليات
الأيضية في الجسم من
"هدم/فقد" و
"بناء/خلق"، أساس
النمو و التطور

إنّ "الفقد" من سنن
الحياة و لا غنى عنه
لأستمرارها و
تواصلها... ألا تفقد"
الخلية الأم" حياتها
وهي تنقسم نصفين
لتهبها بقدرة خالقها
الى خليتين

السريية للإضطرابات المتعلقة بالصدمة، بداية من الحالات القلقية بمختلف أنواعها مروراً بالهلع والكآبة و صولاً الى الشدة التالية للصدمة، إلا أننا نلاحظ في ممارستا السريية أن مثل هذه الإرتكاسات النفسية هي أقل وطئة و انتشاراً في مجتمعاتنا مما نجده في أدبيات الطب النفسي و التي صنفها علماء ينتمون الى ثقافة مختلفة، قد يعود ذلك إلى جهاز قيم و إلى جملة من المفاهيم المختلفة التي استقرت في اعماق وعينا، فكان أن قلصت الى حد بعيد ارتكاسات "الفقد/الموت" على جهازنا النفسي و ساهمت في تخفيض تداعياته المرضية، فكانت هذه "الخلفية الذهنية/العقائدية" المستمدة الى حد كبير من فكر اسلامي رسخ مفهوم الحياة كمحطة نحن فيها عابري سبيل نحو محطة نهائية/دار الإستقرار الأبدي، صمام امان خفض معدل هذه الإضطرابات....، و كل ما يصيب الإنسان في حياته الدنيا يدخل في دائرة إبتلاء كتب عليه وهو نطفة امشاج، فالكل مبتلى ..والكل آتية المصائب.. لحكمة منها، اختبار القدرة على التحكم في الذات و الصبر: "حتي نعلم الصابرين منكم" .."وبشر الصابرين" .. "انما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب" .

لقد عرف الإنسان في ظل ثقافة تحمل فكر (الايمان بعالم الغيب / الشهادة): السكينة و الإطمئنان و وتراجعت التداعيات النفسمرضية لـ"الفقد/الموت" ، لكن مع تهميش هذه الثقافة و محاولات قصفها و سيطرة تيار فكري احادي البعد، خف وهج هذه الثقافة وتراجع، فكان أن افتقدنا معاني عديدة كانت صمام امان في خفض مستوى الإضطرابات، منها: الإبتلاء، الصبر، المصابرة ،الإصطبار، السكينة ، الإطمئنان، الرحمة ،التراحم... لتحل محلها مصطلحات اخري سيطرت على المشهد النفسي منها: القلق، الحصر، الكآبة، الهلع، الرهاب... ساهم في انتشارها "خلفية

ان كان قدرنا ان نحيا
و "الفقد/الموت"
بتدريتنا، ألا يكون
علينا أن نتعايش معه
بوقار و نتقبله باطمئنان
كظاهرة طبيعية هي
انتقال مفتوح

نلاحظ في ممارستا
السريية أن مثل هذه
الإرتكاسات النفسية
هي أقل وطئة و
انتشاراً في مجتمعاتنا
مما نجده في أدبيات
الطب النفسي و التي
صنفها علماء ينتمون
الى ثقافة مختلفة

يعود ذلك إلى جهاز
قيم و إلى جملة من
المفاهيم المختلفة
التي استقرت في
اعماق وعينا، فكان
أن قلصت الى حد
بعيد ارتكاسات
"الفقد/الموت" على
جهازنا النفسي و
ساهمت في تخفيض
تداعياته المرضية

ذهنية/إيديولوجية" معادية للأديان، أحادية البعد، اسس لها فلاسفة عصر النهضة عند ثورتهم على انحرافات الكنيسة، كانت وصلتنا بعد انحسار الإستعمار العسكري و حل محله اخر مقنع أخبث و أعتى، حتى عُدَّ موصوفا بالوصمة كل من تجاسر و أعلن ايمانه و رفضه الفكر المادي الإلحادي، مع ما يصحبه من ابتزاز نفسي، فهو تارة رجعي، متخلف و اخري ظلامي، عدو النور، إلخ... إن تغيب الإيمان ببعديه (الشهادة/الغيب) و ما أتبعه من تعسف فكري غيب ملكة الإيمان بالغيب و التي تعد من أهم ملكات الوعي الإنساني، ليكون هذا التوجه الفكري كارثيا على انسان عصرنا.. واني أعتقد أنه لاخلاص له مما تردى فيه الإنسان، إلا بإعادة قراءة النص البشري من خلال منظومة فكرية تستوعب كل قدرات الوعي الإنساني التي جهّز بها، تأسيسا لتيار فكري ثنائي البعد، يستوعب ما حققته الإيديولوجيا المادية احادية البعد و يتجاوزها الى الأخذ بالإعتبار أهمية البعد الثاني / بعدي الغيب، علنا نسترجع "سكينة" افتقدناها ونتجاوز ما جناه علينا تيار مادي/أحادي البعد ، جرفنا ردحا من الزمن الى ما آل اليه انسان اليوم، فكان الخلفية الفكرية لجل العلوم الإنسانية (و لم تكن العلوم النفسية بمنأى عن هذه الهيمنة)، أن أوان أقوله بعدما اشقى جبلا كثيرا من العالمين، في ظل انسحابنا من حلبة الصراع العلمي.

جمال التركي

تونس

فكانت هذه "الخلفية الذهنية/العقائدية" المستمدة الى حد كبير من فكر اسلامي رسخ مفهوم الحياة كمحطة نحن فيها محابري سبيل نحو محطة نهائية/دار الإستقرار الأبدي، صمام امان خفض معدل هذه الإضطرابات

كل ما يصيبه الإنسان في حياته الدنيا يدخل في دائرة ابتلاء كتبه عليه وهو نطقة امشاج، فالكل مبتلى..والكل آتية المصائب.. لحكمة منها، اختبار القدرة على التحكم في الذات و الصبر: "حتي نعلم الصابرين منكم".."وبشر الصابرين".." انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب" .

الكتاب الإلكتروني لشبكة العلوم النفسية العربية :العدد 19 - 2011



إصدارات مؤسسة العلوم النفسية العربية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف 2011

